مقياس منهجية و تقنية البحث التاريخي (1)
السنة الثانية ليسانس
المحاضرة رقم 4
أهمية التاريخ

يرى الباحثون في عصرنا الحديث أنّ التّاريخ يتناول كل شيء يخص جهود الإنسان و إنتاجه عبر العصور ، سواء أكانت جهوداً سلميّة أم غير سلميّة، أم جهوداً تتعلّق بالفنون أو الاقتصاد أو التّعليم ، و هذا ما يبرز أهمية الدراسات التاريخية .

إنّ أهميّة دراسة التّاريخ تكمن في كون التّاريخ من أهم العناصر الّتي يستند عليها أي مجتمع في تطوّره أو انحطاطه ، و يمكن أن نوضح هذه الأهمية في النقاط التالية :

- دراسة التّاريخ تساعد على معرفة النّاس و من يعاصرونهم ، وهو مهم في تحديد الأسماء دون خطأ في حال تشابهت تلك الأسماء .

- تعين دراسة التّاريخ في توضيح الأخبار الجديدة من القديمة ، فهو الّذي يشهد على الماضي و الحاضر و ما يمكن أن يكون عليه المستقبل .

- تكمن أهميّة دراسة التّاريخ في الاستفادة من الماضي و تجنّب الوقوع في الأخطاء الّتي كانت في الماضي ، و محاولة البحث عن حلول لهذه الأخطاء ، فعند دراسة قصص الأمم و تاريخهم يستطيع الإنسان معرفة السّنن الكونيّة و نهاية الظالم و نصر المظلوم و أخذ العبر و العظات ، قال الله تعالى : **" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ " سورة يوسف الآية 111** ، و قد أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم بالعديد من القصص كقصص الأنبياء كما في قوله تعالى: **"كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا " سورة طه الآية 99** ، و ذلك تسلية و تثبيتا لنبيه صلى الله عليه و سلم و أصحابه ، حتى يعلموا أنّ نصر واقع لا محالة و أنّ سنن الله في عباده ماضية .

- نستطيع من خلال دراسة التّاريخ معرفة حقيقة الأحداث و الوقائع و مدى صحّتها ، أو على الأقل الإقتراب من رسم صورة تقريبية لما وقع في الماضي ، ذلك أنّ إدراك أو الوصول إلى الحقيقة المطلقة أمر من العسير الوصول إليه خاصة إذا قلت المصادر التاريخية .

- يساعد التّاريخ في معرفة تاريخ الرّواة و رحلتهم في طلب العلم و حال الرّاوي من صدق أو كذب ، و كان المسلمون قد سبقوا غيرهم في هذا المجال ، و كان الهدف الرئيسي من هذه المعرفة الحرص على السنة الشريفة من التحريف و التبديل ، و قد بلغ

المشتغلون بهذا الصنف من العلم شأوا عظيما و كان لهم فضل كبير في تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين .

- عند دراسة التّاريخ نستطيع معرفة حال الأمم من قوة أو ضعف ، و كذلك نستطيع معرفة مدى جهل الأمم أو علمها و نشاطها أو ركودها .

- يمكن لنا عند دراسة التّاريخ استلهام القدوات الصّالحة التي يبرزها لنا التّاريخ ، و التي كان لها أثر كبير في الحياة ، و هي قدوات لا تُنسى على مر الزّمن .

- و لأنّ التّاريخ له علاقة وثيقة بمختلف العلوم ، فهو بذلك يفتح الباب واسعا لدراسة هذه العلوم المختلفة التي قد تكون مفتاحا لحل كثير من الأسرار التاريخية .

و لا بأس أن ننقل نصا مفيدا في الباب للمؤرخ المسلم ابن الأثير (ت 630ه/1233م) يبين فيه أهمية دراسة التاريخ .

قال ابن الأثير رحمه الله تعالى :

" و لقد رأيت جماعة ممن يدعي المعرفة و الدراية و يظن بنفسه التبحر في العلم و الرواية يحتقر التواريخ و يزدريها و يعرض عنها و يلغيها ، ظنا منه أنّ غاية فائدتها إنّما هو القصص و الأخبار و نهاية معرفتها الأحاديث و الأسمار، و هذه حال من اقتصر على القشرة دون اللب نظره ، و من رزقه الله طبعا سليما و هداه صراطا مستقيما علم أنّ فوائدها كثيرة و منافعها الدنيوية و الأخروية جمة غزيرة ، و ها نحن نذكر شيئا مما ظهر لنا فيها ، و نكل إلى قريحة الناظر فيها معرفة باقيها .

فأما فوائدها الدنيوية فمنها أنّ الإنسان لا يخفي أنّه يحب البقاء و يؤثر أن يكون في زمرة الأحياء ، فيا ليت شعري ! أي فرق بين ما رآه أمس أو ما سمعه و بين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين و حوادث المتقدمين ؟ فإذا طالعها فكأنّه عاصرهم ، وإذا علمها فكأنّه حاضرهم .

و منها أنّ الملوك و من إليهم الأمر والنهي إذا ما وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور و العدوان و رأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف عن سلف ، و نظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر و قبيح الأحدوثة و خراب البلاد و هلاك العباد و ذهاب الأموال و فساد الأحوال استقبحوها و أعرضوا عنها و أطرحوها ، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين و حسنها و ما يتبعها من الذكر الجميل بعد ذهابهم و أنّ بلادهم و ممالكهم عمرت و أموالها درت ، استحسنوا ذلك و رغبوا فيه و ثابروا عليه و تركوا ما ينافيه ، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الأراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء و خلصوا بها من المهالك و استصانوا نفائس المدن و عظيم الممالك ، و لو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخرا .

و منها ما يحصل للإنسان من التجارب و المعرفة بالحوادث و ما تصير إليه عواقبها ، فإنّه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره فيزداد بذلك عقلا و يصبح من يقتدي به أهلا .

و منها ما يتجمل به الإنسان في المجالس و المحافل من ذكر شيء من معارفها ، و

نقل طريفة من طرائفها ، فترى الأسماع مصغية إليه والوجوه مقبلة عليه و القلوب متأملة ما يورده و يصدره مستحسنة ما يذكره .

و أما الفوائد الأخروية فمنها أنّ العاقل اللبيب إذا تفكر فيها و رأى تقلب الدنيا بأهلها و تتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها ، و أنها سلبت نفوسهم و ذخائرهم و أعدمت أصاغرهم و أكابرهم ، فلم تبق على جليل ولا حقير ، و لم يسلم من نكدها غني و لا فقير ، زهد فيها و أعرض عنها و أقبل على التزود للآخرة منها ، و رغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص و سلم أهلها من هذه النقائص ، و لعل قائلا يقول : ما نرى ناظرا فيها زهد في الدنيا و أقبل على الآخرة و رغب في درجاتها العليا ، فيا ليت شعري كم رأى هذا القائل قارئا للقرآن العزيز- و هو سيد المواعظ و أفصح الكلام - يطلب به اليسير من هذا الحطام ؟ فإنّ القلوب مولعة بحب العاجل .

و منها التخلق بالصبر و التأسي و هما من محاسن الأخلاق ، فإنّ العاقل إذا رأى أنّ مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرّم و لا ملك معظم بل و لا أحد من البشر علم أنّه يصيبه ما أصابهم " .

ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق : أبو الفدا عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، ج1، ص 9 و ما بعدها .